رأي القدس

اولمرت في القاهرة

■ يبدأ ايهود اولمرت رئيس وزراء اسرائيل زيارة رسمية الى القاهرة اليوم للقاء الرئيس حسني مبارك وسط انباء عن وجود محاولات امريكية لاحياء العملية التفاوضية، بدءا بالافراج عن الجندي الاسرائيلي جلعاد شليط في اطار صفقة تبادل اسرى مع الجانب الفلسطيني.

الزيارة هي الاولى التي جرى الاعداد لها بشكل جيد، حيث اوفدت الحكومة المصرية وزير خارجيتها احمد ابو الغيط الى القدس المحتلة للتحضير لجدول اعمالها، ولكن من غير المتوقع ان تعطي الثمار المرجوة منها في ظل ما يجري على الارض الفلسطينية من تطورات.

في الماضي كانت هناك سلطة واحدة، برأس واحد، وزعامة تاريخية قادرة على اتخاذ قرارات بشأن العملية التفاوضية، وتوقيع اتفاقات، ومن ثم القدرة على تسويقها في اوساط الشعب الفلسطيني، ولكن الوضع تغير، واصبحت السلطة برأسين، احدهما ضعيف هو السيد محمود عباس، والثاني بدأ يتذوق طعم الحكم وهو السيد اسماعيل هنية رئيس الوزراء.

فما يمكن ان يوافق عليه السيد عباس ليس بالضرورة ان يكون موضع قبول من قبل الرأس الآخر. وربما لا نبالغ اذا قلنا ان الطرفين لا يملكان القدرة على اتخاذ قرارات حاسمة وملزمة لاعتبارات خارجية بحتة.

فقرار حكومة حركة «حماس» موجود لدى مكتبها السياسي في دمشق، اما قرار السيد عباس فمحكوم باعتبارات اقليمية، اي دول الجوار وخاصة مصر والاردن، وعدم ممانعة الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل.

السيدة كوندوليزا رايس ستصل الى المنطقة في غضون الايام القليلة المقبلة، وتريد ان ترى تقدما على صعيد ملف الجندي المخطوف اولا، ونجاح الوساطة المصرية في الملف الآخر وهو استئناف المفاوضات، لان كل ما يهمها حاليا هو تهدئة الوضع على الجبهة الفلسطينية ـ الاسرائيلية، وبما يسمح بانضمام الطرفين، اي السيد عباس والدولة العبرية، الى محور المعتدلين الذي تؤسس لقيامه في مواجهة الهلال الشيعي الذي كان اول من تحدث عنه العاهل الاردني الملك عبد الله الثاني.

السؤال المطروح هو حول كيفية التوصل الى اتفاق مع الطرف الفلسطيني، ورأسا السلطة في حال تناطح دموي على الارض، وقنوات الحوار بينهما مقطوعة منذ اشهر؟

بالامس فقط اسفرت الصدامات بينهما، اي حركتي «فتح» و«حماس» عن سقوط خمسة قتلى، وربما يتضاعف الرقم مع مثول الصحيفة الى الطبع. فالموقف في قمة التوتر، وعلمتنا التجارب السابقة انه في كل مرة يتم اغتيال شخص من هذا الفريق يبادر الفريق الآخر للانتقام لاغتياله فورا.

الوسيط المصري يقول ان قمة القاهرة بين اولمرت ومبارك ستمهد لقمة ثلاثية بحضور السيد عباس في شرم الشيخ في مرحلة لاحقة، وربما تركز هذه القمة الثلاثية في حال اتمامها ليس على احياء عملية السلام، وانما حول كيفية قلب حكومة «حماس» وتعزيز الحرس الرئاسي الفلسطيني، بحيث يؤدي هذه المهمة على الوجه الذي تريده امريكا والقوى المتحالفة معها في المنطقة. وهي مهمة قد تكون باهظة التكاليف للمنطقة وجميع المتورطين في تنفيذها.

بل نحتاج لايديولوجيات عربية

علي محمد فخرو

■ من بديهيات الحياة السياسية العربية أن تغيراتها الكبرى تحدِّدها الصِّراعات بين الأشخاص أكثر بكثير مما تحدِّدها المنافسات بين المؤسسات. أفضل مثال على ذلك كان التّضاد الشخصاني، في الفكر وفي أساليب العمل وفي المزاج، بين المرحومين الرئيس حافظ الأسد، قائد حزب البعث العربي في سورية، والرئيس صدّام حسين، قائد الحزب في العراق، ولقد أدّى ذلك التضادد والاختلاف، من بين الكثير مما أدّى، إلى قطيعة وصراع بين جناحي الحزب الواحد وإلى إضاعة فرص تاريخية للبدء العملي الواعد بتوحيد الأمة العربية وتحرير إرادتها وبناء نهضتها.

اليوم، أما وقد اختفى الإثنان عن المسرح لا يمكن للمراقب الملتزم بمستقبل الحياة السياسية في أرض العرب إلاّ أن يطرح السؤال التالي: هل سيستطيع هذا الحزب أن يخرج من حالات الإختلافات والتشرذم والصِّراعات ليساهم مع الآخرين في إخراج العراق وسورية من ورطتيهما الحاليتين الخانقتين وليلعب من ثمّ دوراً فاعلاً جديداً في الحياة السياسية العربية كلّها؟

مبرِّر هذا السؤال ليس وليد أحداث الحاضر فقط وإنما هو أيضاً، وبدرجة أكبر، وليد عقود من فراغ إيديولوجي سياسي عربي مفجع أضعف الساحة السياسية العربية وأفقرها. ذلك أنه فيما عدا إيديولوجية التيار الإسلامي السياسي الذاتية النابعة من تراث العرب الروحي فإن الإيديولوجية الثانية، الذاتية أيضاً، انحصرت أساساً في الفكر القومي العربي الذي كان هذا الحزب من بين أهمّ مؤسّسيه وحامليه ومطوريه. وتبدو أهمية وجدية السؤال بعد الضّعف والإنقسام والاحتضار الذي وصلت إليه الكثير من التنظيمات القومية العربية الأخرى.

هل نحن نجدِّف ضد التيّار عندما نتحدث عن بعث الحيوية والإبداع في أحد الإيديولوجيات السياسية العربية في الوقت الذى يتحدث فيه الكثيرون عن موت عصر الإيديولوجيات على مستوى العالم كلّه؟

والجواب هو بالنفي. فاذا كان الغرب لديه مشكله مع مبادئ وتطبيقات الحداثة، والتي كانت دم ولحم أغلب إيديولوجياته المتطرفة، من مثل النازية والفاشستية والشيوعية الستالينية وتفريعاتهم الأمر الذي جعله يكفر بكل إيديولوجية، فإننا لسنا ملزمين كعادتنا بتقليده من جهة ولا بالاندماج في أزماته الفكرية والسياسية من جهة أخرى. والواقع أن الغرب نفسه بدأ يدرك مؤخراً أن الحياة السياسية في النظام الديمقراطي تنقلب إلى مغامرات نفعية وصراعات مصلحيه فئوية فاسدة إذا لم تضبطها ضوابط وقيم مبادئية كبرى والتي لا يمكن أن تتواجد وتتكامل مع بعضها البعض إلاّ ضمن إيديولوجية تقدِّم نفسها كأفكار متناسقة وكاستراتيجيات عامة لحلّ مشاكل المجتمعات الكبرى.

فإذا كان الغرب الذي لديه نظام ديمقراطي مستقر ومجرّب بدأ يدرك المخاطر التي سيتعرّض لها هذا النظام بغياب الإيديولوجيات المتوازنة المعقولة فكيف الحال بنا نحن الذين ما زلنا في طور الانتقال البطيء والجزئي نحو الديمقراطية؟

من هنا الأهمية للتذكير بأن الحركات السياسية بكل أطيافها في أرض العرب قد أضاعت سنين كثيرة بسبب إنغماسها شبه الكلي في الممارسات السياسية اليومية وفي الصّراعات فيما بينها وبين أجنحتها، الأمر الذي أنساها العمل الدائم لتطوير إيديولوجياتها لتتلاءم مع المستجدات الهائلة في مجتمعاتها وفي العالم كلّه. وبالطبع فإن من بين تلك الحركات ماهو معني بإيديولوجية القومية العربية التي اكتفت بما وضع من أفكار واستراتيجيات منذ عقود طويلة تحتاج اليوم إلى تطوير عميق لتسدّ فراغاً هائلاً في الساحة السياسية العربية. سنخادع أنفسنا إن اعتقدنا بأن بالإمكان إنتقال المجتمعات العربية إلى الأنظمة الديمقراطية الناضجة المستقرّة غير المزورة والمشوّهة والمظهرية دون وجود حركات سياسية تطرح أفكاراً واستراتيجيات عامة تضبط وتقيّم بها كل خطوة تطبيقية للديمقرطية. صدفة وفاة الرئيس العراقي هي التي أملت أن يكون الحديث موجّهاً إلى حزب بعينه، كمثل محدّد، لكن كل ما نقوله ينطبق على كل الحركات القومية والإسلامية الحالية والمستقبلية. وفي جميع الأحوال فلم تكن مشكلة العرب قط مع الإيديولوجيات وإنما كانت دوماً مع تطبيقها ومطبقيها.

إعدام صدام قرار امريكي

د. طاهر كنعان *

■ إعدام صدام هو ذروة الخلاف الصاخب حول مسيرة هذا الرجل، خلاف ما فتئ يتلاطم منذ اللحظة التي أحاطت القوات الأمريكية به وأوقعته في الأسر، وعبر مجريات الدراما/المحاكمة السياسية التي أدارتها قوات الاحتلال بشخوص وممثلين من صنائعها المحليين، والتي لم تنجح سوى في إعادة الاعتبار لرجولة وكبرياء الزعيم العراقي الأسير بعد أن اهتزت صورتيهما (الرجولة والكبرياء) حين فشل في الاستشهاد لحظة وقوعه في الأسر.

أما الخلاف فكان في تقييم الرجل وسيرته السياسية، والذي تقابل فيه من مواطني الأقطار العربية طرفان:

أحدهما طرف نخبوي جنح إلى تقييمه تقييماً سلبياً متفاوت في الشدة مع تفاوت الحقب والأزمنة، ولكن قواسمه المشتركة هي الاستبداد والقمع الدموي في الداخل والمغامرات العسكرية في الخارج (لا سيما الحرب ضد إيران واغتصاب الكويت)، يضاف إليها إجهاض الصمود والتصدي لإسرائيل بعامل الفشل في ممارسة الحلم والصبر إلى حين استكمال القدرات التقانية ومقوّمات الفعالية الاستراتيجية.

أما الطرف الآخر الذي جنح إلى تقييم الزعيم العراقي تقييماً إيجابياً فهو طرف شعبي وشعبوي في غالبيته، قواسمه المشتركة ما حققه نظام صدام ـ لا سيما خلال السبعينات والثمانينات قبل اغتصاب الكويت ـ من بناء قدرات العراق لاسيما في مجالات التعليم والصحة والإسكان، ثم في استيراد واستيعاب التكنولوجيا. كذلك جيرّ المناصرون له نجاحاً لا بأس به في ترسيخ الأمن الشخصي للغالبية العظمى من العراقيين المبتعدين عن السياسة وصهرهم في بوتقة حدّ أدنى من المواطنة العلمانية غير الطائفية. وظهر نجاح العهد الصدامي في كبح الطائفية من خلال الأداء الوطني للجيش العراقي، وبضمنه أعداد غفيرة من العراقيين الشيعة، في الحرب ضد إيران.

بعد حرب تحرير الكويت، ثم حرب الحصار الاقتصادي، وفشل السياسة الصدامية في التعامل بدراية وكفاءة مع التحديات التي تفرضها الأوضاع الدولية في ظل الهيمنة الأمريكية، جنح تقييم صدام إلى ترجيح السلبيات وإضعاف الطرف المرجّح للإيجابيات، إلى أن وصل الأمر إلى الحرب على العراق واحتلاله تنفيذاً للأجندة الصهيونية بالقضاء على العراق كدولة وتقسيمه إلى كل عنصر وقومية ومذهب ديني قابل للقسمة، حتى ولو، بل لاسيما إذا استتبع ذلك قتل وإفناء أكبر عدد من العراقيين، وإغراق البلاد في حرب أهلية تنفخ فيها وتؤججها رياح العقائد الظلامية والإرهابية القادمة من الجنوب، ورياح الانتهازية المذهبية القادمة من الشرق.

إن تنفيذ القتل في الزعيم الأسير فجر عيد الأضحى وفي الصميم من الأشهر الحرم هو كفر وهرطقة من أي مدّع للإسلام شأن حكومة المالكي. لكن قرار القتل هو قرار أمريكي سعى إلى إصابة عصفورين بحجر واحد: الأول، تزويد بوش ـ على عتبة العام الجديد ـ بخبر إنجاز مهم واحد قادم من العراق وسط السلسلة المتصلة من أخبار الفشل والإحباط! والثاني، تغذية الحرب المذهبية بين الشيعة والسنة بكمية جديدة ضخمة من الوقود شديد الاشتعال.

يتضح من الوقائع المشار إليها أنه مهما كانت مساوئ العهد الصدامي ومهما اشتدت الحاجة إلى تغييره، فإن الركون إلى الأجنبي لإحداث التغيير قضى على جميع فرص الوصول إلى نظام صالح ومصالحة أهلية حقيقية، وأجهض إمكانية أن يقيم الشعب العراقي محاكمة موضوعية عادلة تضع إساءات العهد الصدامي في سياق الاعتراف والاستغفار التاريخي ضمن جهد مكثف للمصالحة الوطنية على غرار محاكمات جنوب أفريقيا التي كانت وسيلة بالغة النجاعة لتضميد جراح الوطن وإقرار السلم الأهلي.

إن المآتم و سرادقات العزاء التي أقيمت في العديد من المدن والبلدات العربية ومشاعر الحزن التي عمت جماهير عريضة من الشعوب العربية لمقتل صدام كانت لأن من قتل صدام لم يستهدف صدام الاستبداد والقمع بل استهدف صدام النضال من أجل بناء القدرة العربية المناهضة للصهيونية والاستعمار، ولهذا السبب بالذات استحق هذا القتيل أن يعدّ شهيداً ضمن قوافل الشهداء في سبيل ذلك النضال.

* مفكر عربي مقيم في الأردن

سياسة انتقامية لن تغير من حقائق الواقع شيئاً ملموساً

د. بشير موسى نافع *

■ أعدم الرئيس العراقي السابق صدام حسين في يوم عيد عند أغلبية المسلمين؛ وأعدم وأغلبية العرب والمسلمين يأملون أن يسود العقل وأن تطوى صفحة النظام السابق بدون ثارات وأحقاد؛ وأعدم بعد محاكمة شابتها أسئلة لا أول لها ولا آخر؛ وأعدم أيضاً والإدارة الامريكية تحاول إعادة بناء سياستها في العراق وإنقاذ ما يمكن إنقاذه. وحتى لو لم يكن إعدام صدام حسين محل جدل وانقسام داخل العراق وخارجه، فما كان لأن يطلق لغريزة الانتقام العمياء العنان بإعدام الرجل في يوم عيد الأضحى والمسلمون يرقبون حجيجهم يهبطون من صعيد جبل الرحمة. ولكن غريزة الانتقام هذه المرة تسلحت بنزوع طائفي لا يقل عمى، بحيث لم ير رئيس حكومة الاحتلال الرابعة عيد ذلك الجزء من شعبه الذي لا ينتظم في صفه الطائفي. وفي افتراق صارخ مع منظومة القيم المدعاة للعراق الجديد، قيم العدالة والديمقراطية والحرية، كان قرار الإعدام الحلقة الأخيرة في محاكمة أسس لها الغزو والاحتلال، وأدارتها رؤية طائفية قصيرة النظر، وأريد لها تحقيق أهداف سياسية لا إحقاق الحق.

بيد ان قرار الإعدام هو أيضاً، وفي شكل رئيسي، قرار امريكي. ومن زاوية النظر الامريكية، يحمل القرار حزمة من الغايات. ترتبط الأولى بمغزى احتلال العراق. ففي حين توزعت قراءات المشروع الامريكي في العراق بين الدائرة الاستراتيجية والنفطية والنزعة التبشيرية الامريكية لنشر قيم الحرية الليبرالية والديمقراطية، فإن واحداً من أهم الدوافع خلف المشروع قلما يشار إليه. هذا الدافع تجسده الرواية التالية. بعد أسابيع قليلة من أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) استضاف نائب الرئيس الامريكي ديك تشيني المؤرخ اليهودي الامريكي، البريطاني الأصل، برنارد لويس، ليوم كامل في عطلة نهاية الإسبوع. كان لويس قد طور خطاباً معادياً لتاريخ العرب والمسلمين منذ ما بعد حرب حزيران (يونيو) 1967، بعد أكثر من عقدين من العمل الأكاديمي البارز في بريطانيا. في حديثه مع تشيني، أعاد لويس التوكيد على مقولته التي كان قد نشرها في كتاب صغير له من قبل. قال لويس ان العرب، الكتلة المركزية من حاملي الميراث الإسلامي، لم يعترفوا بهزيمة الإسلام النهائية في مواجهته الطويلة مع الغرب. وفي حين أدت الهزائم التي أوقعها الغرب الليبرالي بأمم مثل اليابان وألمانيا إلى ان تعيد هذه الأمم بناء ذاتها على أساس الانضواء في العالم الجديد، العالم الذي تقوده الكتلة الأطلسية، فإن العرب ما تزال تحركهم أمجاد الماضي. ويتلخص علاج لويس لهذه الإشكالية، التي يرى أنها في أصل التوتر الذي يثيره المسلمون داخل النظام العالمي، في إيقاع هزيمة قصوى بالعرب، هزيمة يستحيل عليهم تجاهلها أو نسيانها لأجيال قادمة. غزو العراق واحتلاله كان أحد تجليات هذه الرؤية. وما شهده العراق المحتل خلال السنوات القليلة الماضية ليس فقط شيطنة صدام حسين، بل وإدانة العرب كأمة وإدانة الفكرة القومية العربية وميراثها. وإعدام صدام حسين هو في أحد وجوهه أخذ هذه الإدانة إلى أقصاها.

ويحمل إعدام صدام حسين رسالة من نوع آخر، رسالة إلى دول الجوار العراقي، والعربية منها على وجه الخصوص. طبقاً للمواثيق الدولية، يعتبر الرئيس العراقي السابق وأركان حكومته جميعاً أسرى حرب، لم يكن للولايات المتحدة الحق في محاكمة أو معاقبة أي منهم في أي صورة من الصور. تماماً كما ان القانون الدولي لا يمنح القوة المحتلة إجراء أي تغيير في بنية البلد المحتل. ولكن غزو العراق واحتلاله، الذي تم أصلاً بدون غطاء قانوني دولي، مضى ليطيح بكل الشرائع المتعلقة بتنظيم العلاقة بين قوة الاحتلال والشعب والبلاد المحتلة. ما يريد الامريكيون إيصاله إلى دول المنطقة، وإلى حكامها في وجه خاص، الخصم منهم والعدو، ان المصير الذي لاقاه الرئيس العراقي السابق قد يصبح مصيرهم هم أيضاً. الطريق الوحيد لتجنب مثل هذا المصير هو الوفاء المطلق والنهائي للسياسة الامريكية. في وقت من الأوقات التقت مصالح عراق صدام حسين بالمصالح الامريكية، ولكن هذه العلاقة التحالفية القصيرة لم تحمه من قرار الإعدام بعد ان اصطدمت طموحاته بحدود المصالح الامريكية.

بيد ان الرسالة الأهم التي يحملها إعدام الرئيس العراقي السابق تتعلق بالمراجعة الامريكية الاستراتيجية للوضع العراقي. بدأت هذه المراجعة كما هو معروف منذ شهور، وقد تسارعت وتيرتها بعد تطورات امريكية داخلية في تماس مع المسألة العراقية. ليس ثمة طريقة للتيقن من الملامح الأساسية للسياسة الامريكية الجديدة، إلا بعد ان يعلنها صاحب القرار، أي الرئيس الامريكي نفسه. وربما لن يأتي الإعلان شاملاً وتفصيلياً على أية حال. أغلب ما طرح خلال الأسابيع الأخيرة، بما في ذلك تقرير بيكر – هاملتون، هو محاولات للتأثير في المراجعة الجارية وقد لا يكون بالضرورة جزءاً من السياسة الجديدة. ولكن من الممكن ربما تلمس التوجه العام لهذه السياسة من خلال رؤية التوجهات الامريكية الأخيرة في عدد من المناطق الساخنة.

بخلاف الاعتقاد الذي ساد المنطقة العربية بعد إعلان تقرير بيكر ـ هاملتون، واستقالة رامسفيلد وبولتون، فإن الواضح حتى الآن ان السياسة الامريكية لا تتحرك نحو الاعتدال والعقلنة والتفاوض مع الخصوم. ثمة محاولة جديدة لإطاحة الحكومة الفلسطينية التي تقودها حماس، إفشال لجهود عمرو موسى للتوصل إلى حل عربي للأزمة اللبنانية، هجوم كاسح تقوده إثيوبيا بتشجيع امريكي يؤدي إلى إخراج اتحاد المحاكم الإسلامية من العاصمة الصومالية مقديشو، ثم الإعدام الفج والمثير للاستفزاز والانقسام للرئيس العراقي السابق. ما يحدث هو في الحقيقة تصعيد امريكي عسكري جديد في عدة مواقع وعلى عدد من الجبهات. ولم يعد من المستبعد، في ظل هذه التطورات، ان تحمل المراجعة الاستراتيجية للوضع في العراق دفعاً امريكياً في اتجاهين على الأقل: قوى ومناطق المقاومة العراقية، من ناحية، وما يعرف بجيش المهدي، من ناحية أخرى. عندما يكون هناك تباين بين ما هو واقع وما هو أيديولوجي فإن هذه الإدارة تقدم الأيديولوجي على كل شيء آخر. وما قد تشهده الشهور القليلة القادمة محاولة هجوم امريكي واسع النطاق في الشرق الأوسط، ابتداء من العراق، للخروج من مناخ الإخفاق الذي أحاط بالسياسة الامريكية في المنطقة خلال العام المنصرم.

هذا الهجوم الإنقاذي للسياسة الامريكية، وليس إعدام الرئيس العراقي السابق، هو العامل الهام الذي ينبغي ترقب أثره على الأوضاع في العراق والمنطقة. إعدام صدام حسين لن يحبط وضع المقاومة المعنوي، وكل تصور مخالف ليس أكثر من وهم يعيد التوكيد على جهل الامريكيين وحلفائهم بما هو العراق. ما يحرك العراقيين (وغير العراقيين) الذين يقاومون الاحتلال وشركائه ليس الولاء لصدام حسين (بالرغم من وجود هذا الولاء لدى مجموعات منهم)، ولكن الولاء للعراق ولتقاليد مقاومة الغزاة المغروسة في إيمان شعوب هذه المنطقة وفي بنيتها التاريخية. وإعدام صدام حسين لن ينقذ القوة السياسية العراقية المتحالفة مع الاحتلال من الهوة التي هبطت إليها، بعد ان انتهى كل أمر تعهدته إلى الكارثة، وكأنها مسكونة بلعنة لا فكاك منها: الغزو الأجنبي الذي شاركت فيه وبررته ضد وطنها تحول إلى مجزرة يومية، الديمقراطية والحريات أصبحت طائفية مقيتة، ووعود الازدهار تكشفت عن أكبر حالة نهب للثروة الوطنية عرفها أي بلد في العصر الحديث. وإن كان لحادثة إعدام صدام حسين أن تؤشر إلى أمر محدد، فقد أشرت إلى ان المجموعة الحاكمة في المنطقة الخضراء لا تصلح ولن تستطيع مطلقاً حكم العراق. إضافة إلى ذلك كله، لن يغير إعدام صدام حسين من التوتر الطائفي في العراق والمنطقة (بل ربما يزيده تفاقما)، ولا من التحورات السياسية التي تعصف بالمنطقة العربية.

ما سيغيره إعدام صدام حسين ربما هو رؤية العرب، حكاماً ومثقفين وأهل رأي، للعراق، وإدراكهم لما يعنيه العراق ليس لتاريخهم فقط ولكن أيضاً لواقعهم ومستقبلهم. عندما بدأت التحضيرات الأنكلو ـ أمريكية لغزو العراق واحتلاله، كان هناك ثمة استهتار أو تجاهل أو ربما فقدان ذاكرة أحاط بالموقف العربي من المسألة العراقية. يقع العراق على الطرف الشرقي الأقصى للمجال العربي، ولكنه كان الحاضنة التاريخية، ومنذ بداية التاريخ العربي ـ الإسلامي، لعناصر الهوية والذاكرة والوعي الجمعي لما هو عربي وإسلامي. ويمثل العراق على نحو كبير، وبعد أربعة عشر قرنا من المسيرة العربية ـ الإسلامية، صورة مصغرة للاجتماع العربي ـ الإسلامي كله. هنا يحضر عدد كبير من المجموعات الإثنية الشرقية، وهنا تحضر كل الطوائف والمذاهب تقريباً. يرمز حفاظ العراق على وحدته إلى قدرة شعوب المجال العربي ـ الإسلامي الحفاظ على وحدتهم، وإن سكت العرب والمسلمون عن تمزق العراق وتفتيت وحدته، فالأغلب ان تطالهم قوى التمزق والتفتيت عاجلاً أو آجلاً. وربما بدأ العرب الآن بالفعل، وبعد هذا القدر الكبير من الموت والدمار، يدركون خطر ما يحدث في العراق على مستقبلهم ككل.

لقد مضى صدام حسين إلى ملاقاة وجه ربه، مضى في لحظة دراماتيكية بالغة، أججت عواطف العرب والمسلمين داخل العراق وخارجه. وككل الشخصيات الكبرى، مضى، تصاحبه موجتان متناقضتان من التنزيه والشيطنة. ولكن صدام لم يكن لا هذا ولا ذاك؛ لم يكن منزهاً، لأنه ككل الزعامات العربية التي برزت في الفترة بين 1952 و1970، الزعامات التي حملت طموحات الوحدة والتنمية والاستقلال، ارتكب أخطاء عدة ووقف قدراً هائلاً من القوة للحفاظ على الحكم وتحقيق الأهداف. ولكنه لم يكن شيطاناً بأي حال من الأحوال، والذين يشيطنونه اليوم يحاولون محاولة هزيلة تغطية العار الذي يجللهم والكارثة التي جلبوها على العراق. حافظ صدام حسين، ما استطاع، على وحدة العراق والعراقيين، حافظ على استقلال العراق، وحاول ان يعيد للعراق دوره الذي يستحقه في الإقليم والعالم. وسواء استعاد العراق عافيته في المستقبل القريب أو تعاظمت المأساة التي تحيط به، فإن إعدام صدام حسين سيبقى رمزاً لواحدة من لحظات التحول الرئيسية في تاريخ المنطقة والعالم، لحظة تجلت ملامحها بعد أسابيع قليلة فقط من احتلال العراق.

* كاتب وباحث عربي في التاريخ الحديث

الأبعاد السياسية لإعدام صدام حسين

د. يوسف نور عوض *

■ كان من المتوقع بعد هزيمة الجمهوريين في انتخابات الكونغرس الأخيرة أن يعيد الرئيس بوش التفكير في توجهات سياسته بالنسبة للعراق، وقد تفاءل الكثيرون حين قدم دونالد رامسفيلد استقالته وتولى وزارة الدفاع «غيتس» الذي اعترف في أول تصريح له أن الولايات المتحدة لا تكسب الحرب في العراق، ولكن بعد زيارته للعراق في أول أسبوع تولى فيه المسؤولية صرح بأنه يعتزم زيادة القوات الأمريكية هناك بنحو ثلاثين ألفا. وجاء هذا التصريح صدمة للكثيرين لأن زيادة القوات الأمريكية لا يعني تحقيق الأمن في العراق بعد أن وضح تماما أن وجود القوات الأمريكية هناك هو الذي عزز الصراع المذهبي لصالح فئة دون أخرى وبالتالي لم تكن هناك أهمية لزيادة القوات الأمريكية إلا إذا كانت هناك استراتيجية أبعد ليس بالضرورة أن تكون أكثر نجاحا لأن الولايات المتحدة عودتنا أنها تتخذ مواقف في كثير من الأحيان لا تستند إلى معرفة دقيقة بما يجري على الأرض وهكذا فجأة بعد زيارة عدد من المسؤولين العراقيين لواشنطن صدر قرار محكمة التمييز الذي حدد فترة إعدام الرئيس صدام حسين بثلاثين يوما وهو قرار غير قابل للنقض من قبل رئيس الجمهورية. ولم تمض أيام قليلة حتى نفذ حكم الإعدام في الرئيس السابق وسط مواقف دولية وإقليمية لا تختلف كثيرا عن الصورة التي عهدناها في الأمم المتحدة عند التحضير لحرب العراق، فمن ناحية رحب الرئيس الأمريكي جورج بوش بالتنفيذ ورأى أنه سيكون مرحلة جديدة لبداية الوحدة والديمقراطية في العراق دون أن يشرح كيف سيتحقق ذلك، وأما رئيس الوزراء البريطاني توني بلير فقد التزم الصمت لأنه كان وحزبه أكثر المتضررين من حرب العراق على الرغم من أن وزيرة خارجيته أصدرت بيانا باهت المضمون والمحتوى وعلى هذا النحو تتابعت المواقف من الدول الأوروبية، وبعد فترة صمت من الدول العربية أصدرت مصر والسعودية استنكارا لعملية الإعدام ليس من حيث عدالتها أو مغزاها السياسي بل من حيث توقيتها وهو أمر لم تحفل به الحكومة الإيرانية التي أعلنت تأييدها للقرار وأسبابها في ذلك معلومة، وأما منظمات حقوق الإنسان فقد أصدرت بياناتها المعهودة بشجب العقوبة وعدالتها في بيانات أصبحت معتادة ولا تؤثر كثيرا في الموقف السياسي الدولي وبالطبع فإن المسألة التي تستأثر بالاهتمام لا تتعلق بالمواقف من نوع العقوبة أو ما إذا كان صدام يستحقها أم لا، فهذه مسألة تختلف حولها الآراء ذلك أنه في الوقت الذي ترفض فيه كثير من دول الإتحاد الأوروبي تنفيذ عقوبة الإعدام لاحتمال أن يكون هناك خطأ في إجراءاتها فإن دولا أخرى ومن بينها الولايات المتحدة لا تمانع في تنفيذ العقوبة. وبالتالي فهذه مسألة لا يحسن الوقوف عندها خاصة عندما يتعلق الأمر بالرئيس صدام حسين الذي تختلف المواقف حوله اختلافا كبيرا. ولا يعني ذلك أنه يجب أن يسكت الناس عند وقوع مثل هذه الممارسات ذلك أن كثيرا من الأنظمة الشمولية والتقليدية في العالم العربي وغيره كثيرا ما تشرع قوانين من أجل ما تسميه حماية أمن الدولة والمقصود هو حماية أمن النظام الذي يتولى السلطة بطرق انقلابية وغير شرعية. ولكننا نحن هنا بصدد قضية محددة تدور حول سؤال واحد وهو لماذا قررت السلطات العراقية بدعم من الولايات المتحدة تنفيذ الحكم على الرئيس صدام حسين ولماذا قال الرئيس بوش إن ذلك سيساعد على تدعيم الأمن في العراق؟ بالطبع لا يمكننا أن نصدق ما قاله الرئيس بوش لأنه لم يقل الحقيقة كاملة حين فكر أول مرة في غزو العراق فهو قد توجه إلى ذلك البلد بذرائع لا وجود لها ما يعزز أن الهدف الأمريكي كان غير ما ظلت تعلنه وسائل الإعلام الأمريكية وما صرح به المسؤولون الأمريكيون ويجب هنا أن نصف المزاعم الأمريكية بأن العراق يتوجه إلى عهد ديمقراطي بأنها سخيفة. ذلك أن بلدا منقسما عرقيا وطائفيا كالعراق لا يمكن أن يكون النموذج الذي يتطلع إليه العالم العربي لتحقيق الديمقراطية كما أن الديمقراطية ليست عملية تعايش بين أطراف عدة أو عملية انتخاب وإنما هي نظام تقوم عليه الدولة وهي بهذا المفهوم غائبة في جميع أنحاء العالم العربي. إذن لماذا دعمت الولايات المتحدة عملية الإعدام؟ دعنا في البداية ننظر إلى الوقائع التي صاحبت عملية الإعدام فقد عرضت وسائل الإعلام صور الرئيس صدام حسين في لحظاته الأخيرة وهو يتوجه إلى حبل المشنقة وقالت هذه الوسائل إن المسؤولين لم يكونوا يريدون نشر صور اللحظات الأخيرة حفاظا على المشاعر الإنسانية وهذه ولا شك كذبة كبيرة لأنه بعد تنفيذ الحكم وحين لم يتحرك الشارع العراقي أو الشوارع العربية على النحو الذي كان يأمله الذين أصدروا قرار التنفيذ بدأت وسائل الإعلام تذيع ما قالت إنها صور التقطها شخص بكاميرا خاصة وكانت تلك فرية أخرى لأن الذين شاهدوا صدام حسين في لحظاته الأخيرة لم يروا غير الذين كانوا ينفذون الحكم ولم يكن بينهم من يحمل كاميرا خاصة ولو كان من بينهم من يحمل كاميرا فالسؤال هو كيف تجاوز بها إجراءات الأمن المشددة؟ هذا يثير الشكوك في أن هذه عملية مرتبة لإثارة غضب مذهبي خاصة أن الصور الأخيرة حملت من ينادي باسم مقتدى الصدر ما يعني أن عملية التنفيذ تجاوزت مدلولها القضائي إلى مدلولات أخرى وأثارت شكوكا حول ما إذا كان الأمريكيون ضالعين في هذا المسلسل المتدرج من أجل تعقيد الوضع بحيث يقود في النهاية إلى فتنة طائفية؟ ولكن لماذا تكون الولايات المتحدة ضالعة في مثل هذا التخطيط وما الفوائد الاستراتيجية التي تجنيها من تعقيد الوضع في العراق وتحويله إلى فتنة طائفية؟

الإجابة المنطقية هي أن المحافظين الجدد في الولايات المتحدة يفكرون في اتجاه واحد وهو حماية امن إسرائيل الذي ترى واشنطن أن استمرار إيران في تنفيذ برنامجها النووي قد يشكل خطرا داهما عليه، ولاشك أن الولايات المتحدة حاولت بوسائل التهديد وغيرها أن تثني إيران عن الاستمرار في هذا البرنامج ولكنها فشلت أمام التشدد الإيراني ولم يبق أمامها سوى المواجهة ولكن الولايات المتحدة تدرك أن المواجهة مع إيران تتم في ظروف تختلف عن تلك التي واجهتها في حرب الكويت و حرب العراق الأخيرة ذلك أن كثيرا من دول المنطقة كانت في تلك الفترة على استعداد للتعاون مع الولايات المتحدة لأسباب تخصها ولكن الوضع الآن يختلف لأن بعض دول المنطقة لا تريد صراعا مباشرا مع إيران كما أن وجود نحو مئة وخمسين ألف جندي أمريكي في العراق الذي تسيطر عليه حكومة شيعية يجعل مهمة الولايات المتحدة أكثر صعوبة، ذلك بالإضافة إلى أن الوضع الاستراتيجي لإيران في هذه المنطقة يتيح لها مزايا كثيرة أهمها القدرة على السيطرة على مضيق هرمز الذي تمر عبره السفن المحملة بالنفط.وبالتالي فإن أي عمل عسكري ضد إيران لا بد أن تهيئ له الولايات المتحدة بمزيد من الدقة ولا شك أن إثارة المشكلات الطائفية والمذهبية تجعل بعض دول المنطقة تقف في مواجهة بعضها بعضا وبالتالي فإن الصراع بين السنة والشيعة في العراق لا بد أن تكون له انعكاسات إقليمية إذ من الطبيعي أن إيران ستدعم الوجود الشيعي في العراق وربما وقفت سورية موقف الحياد ولكن ذلك لن يكون بكل تأكيد موقف المملكة العربية السعودية ومصر وإذا ما أدخل هذان البلدان على وجه التحديد نفسيهما في هذا الصراع فإن الوضع الاستراتيجي الأمريكي سيتغير كثيرا وذلك ما تسعى إليه الولايات المتحدة .

ويبدو هذا السيناريو في مجمله استعادة للمواقف الأمريكية التقليدية في المنطقة ذلك أن المؤكد هو أن الولايات المتحدة تلعب على متناقضات كثيرة من أجل الاستمرار في سياسات ثبت فشلها، وهي بكل تأكيد بحاجة إلى أن تفكر بعقل جديد وبتصور آخر يخرجها من الأزمات ويجعلها قادرة على الإسهام بشكل إيجابي في حل مشاكل المنطقة، ذلك أن القضية الأساسية في الشرق الأوسط ليست هي قضية تحقيق الأمن لإسرائيل بقدر ما هي الضغط على إسرائيل من أجل قبول الحلول السلمية التي على رغم إجحافها فإن معظم الدول العربية قد قبلت بها. ويعني ذلك باختصار أن حل القضية الفلسطينية هي الأساس في التحول الإقليمي في هذه المنطقة وبدل أن تستخدم إسرائيل قدرات الولايات المتحدة من أجل العيش في حرب مستمرة فإن الأفضل لها هو أن تقبل الجلوس مع الفلسطينيين من أجل التوصل إلى حل لهذه المشكلة المعقدة ومتى وصلت إسرائيل إلى هذا الحل لم يعد هناك ما تخشاه أما أن تظل إسرائيل تحرض الولايات المتحدة على دول المنطقة فإن ذلك لن يوجد حلا للمشكلات وقد ينتهي الأمر بأن تمتلك معظم دول المنطقة أسلحة دمار شامل وعندها ستندم إسرائيل على الوقت الذي أضاعته من أجل التوصل إلى حقيقة لا تحتاج إلى مجهود عقلي للتوصل إليها، وبالتالي فإن إثارة الفتنة الطائفية في العراق على أمل أن تساعد في خلق فوضى في المنطقة لن تكون خيارا موفقا لأنه خيار يفتقر إلى العقلانية والحكمة ناهيك بأن إعدام صدام حسين في حد ذاته قد يك